« أرواح وأشباح »

تحفة فنية

للأستاذ محمد توحيد السلحدار بك

خلقها صاحبها الأستاذ على محمود طه الشاعر الملهم ، فسواها صنيعاً شائقاً يمتع الأدباء أفئدتهم وألبابهم بجماله ، ويكبرونه لطرافته وما فيه من أسرار الفن والشعر ... فما هي هذه الأسرار ؟

إن هذا الصنيع منظومة أنافت على أربعمائة بيت في شأن يعني الإنسانية بأسرها ، لأنه يتعلق بالفطرة البشرية ؛ استوحى الشاعر فيها أساطير الإغريق الشعرية ، وسيرة « آدم » و « حواء » ، ومعنى هبوطهما من الملأ الأعلى ، وخبرة الفنان في حياة الإنسان ؛ وفاض شعره من نفس جياشة ومخيلة قادرة أرته أبطاله كأنهم أحياء يسمع أصواتهم ؛ وجادت قريحته في تصويرهم ، حتى كان من سحر فنه أن جعل قراءه يرونهم ويسمعون حديثهم ، كما رآهم وسمعهم في خياله

بهذه المميزات مجتمعة استحق الصنيع اسم ملحمة[1] ، وعظم شأنه في الأدب العربي

ليست ملحمة حماسية ، بل هي قصة الروح والجسد في محاورة موضوعها تجاذب الرجل والمرأة وأثر الغريزة في الفن بينهما ؛ وهذا موضوع جدي بعيد الغور ، أحسنَ معالجته شاعر مثقف

فما هي عناصر الشعر في هذه الملحمة ؟ إنها أثمار المخيلة والشعور وهزة الإلهام ...

* * *

إن الشاعر تخيل الروح في عالم الأرواح ، مجردةً يقظى لفضيلتها الملائكية ؛ وتخيلها — على الأرض — ناعسة في طيفها منذ أتمها وتضمنها ضيفاً تصورتها في الإنسان ...

وتصور أرواحاً نزيهة تتحادث في الفن الرفيع بين الرجل والمرأة ، وفي الجمال والشهوات والأهواء ، وفي الخطيئة وتبعتها على الرجل هي أم على المرأة ؟

واختار لهذه المحادثة روح فنان شاعر حان بعثه في الأرض ، وأرواح شخصيات من عهد الآلهة والفنانين الذين تصفهم أساطير الأولين ، ليدور الحديث بينها في الموضوع على التبيّن من سيرة الإنسانية منذ نشأتها حتى اليوم ؛ وجعل رمزاً إلى القدرة سمّاه : « صوتَ السماء » ، ليهديها إلى حقيقة القدور ؛ وفرض أن حرم النزاهة والطهر في السماء مسرح فسيح الأرجاء ، يقع فيه ما تصوّر من انطلاق تلك الأرواح في سحرها ، ومن حركاتها وإشاراتها ودلالات ملامحها في محاورتها ، ومن مرور الفنّان بها وهو في صحبة ملك يجوب به أجواز السماء ، ومن اشتراك الثاني في المحاورة ، ثم الأول إلى لحظة بعثه ...

ذلك هو الخيال الأصلي في الملحمة ؛ أما فروعه وحواشيه ، فهي الخيالات البلاغية في الأسلوب ، وقد زان الأصل والفرع من هذا الخيال ، وزاد مزيته أعلاق فكرية تتعلّق بالغريزة والنفس والجمال وبالحياة الاجتماعية ، ولطائف أدبية كالإشارة إلى مانا وفنون هاواى ، وإلى خروج موسى ببني إسرائيل من مصر ، وقصته في أرض مدين

فهذه مخيِّلة قادرة اقتطفت من معارف الشاعر ، وغيّرت ما كان بين المقتطف وغيره من أوضاع العلاقة والمناسبة ، وأنشأت بذلك معاني وصوراً ومشاهد مثالية ، أي لم توجد مجتمعة في الحقيقة وإن عُرفت أقسامها متفرقةً ؛ وأحيت أبطالاً خياليين فكأنك تراهم في مُتحدّثهم ، وتداخلك حساسات وخوالج من محضرهم ؛ وأودعت الملحمةَ أثمار فروعها من الألمعيّة والبديهة وغيرها ... فمن الألمعية في تشبيهات جديدة قوله :

على مذبح الحب من قلبها سراج يسبِّح مَن لألأه

... ...

وتمشى الحياة على نوره وما نوره غير عين امرأة

أهلّ بقلب كفرخ القطا يرفرف تحت جناح القدر

هو المرح الشارد المستهام شرود الفراشة عند المساء

ومن الألمعيّة في إدراك ما لا يُرى في الشيء أول وهلة وهو على الحقيقة فيه :

هو الحب ؟ ... لا ... بل نداء الحياة

تلبيه أجسادنا الظامئة

ومن الألمعيّة في توحيد المتضادين :

هنالك (في الأرض) حيث تشبّ الحياة

وحيث الوجود جنين العدم

(١) كلمة استعملها المعربون أولا اسماً للون الأصلي الأوفر في الأدب الأجنبي من هذا الفن .

... ...

وحيث السعادة بنت الخيال   ولذتها من معانى الألم
سلا مجده الضخم فى قبلة   تذل وتسمو من ذاقها

ومن البديهة كلمة تاييس ، حين وصل الشاعر فى وصفه حواء إلى هذا البيت :

فيا لك من طفلة فذة   وربحاك سيدة العالم !

وقالت بليتيس : يحاول بالشعر إغراءنا ...

هو الموقف الضنك ما يتقيه

فقالت تاييس على الفور :   كما يتقى باشــق صائده

فجاءت بأبلغ ما يخطر للموافق ويناسب المقام .

أما الشعور فآثاره ما خاص الملحمة من الوجدانيات ؛ وهى عنصر أساسى فى كنه الشعر كالخيال : لأن الحب والبغض ، واللذة والألم ، أمور توجد فى صميم الشهوات والأهواء والخوالج الإنسانية جميعاً ، أياً كان باعثها وكان الإسم الذى تسمى به ؛ والأصل أن خاصة التلذذ والتألم والحب والبغض ، وطلب كل جميل ونفع وخير ، وتجنب كل قبيح وضر وشر ، هى خاصة فى البشر أجمعين . ولذا فإن كل حسة تعرو نفس إنسان وصفها وصفاً صادقاً تجد لها صدى فى القلوب . وشاعرنا الملهم صادق الوصف فى ملحمته . وحسبنا شاهداً وقع هذه الأبيات من وصفه حواء :

وكم ذكريات لها عذبة   أعيش عليها وأحيا بها
. . . .
يسائلنى القلب عن أمرها   وأسأله أنا عن سرها
ويعطفنى فى الهوى ضعفها   وأنسى بأنى فى أسرها
. . . .
أحاول أفهمهــــا مرة   فأعيا بها وبتفكيرها

ومن وصفه استنكار بليتيس فى غضبتها على الفنان :

تأثم بالفن حتى غوى   وما الفن بالمرأة الخاطئة
. . . .
ألم ينعم الخلد من عطرها   ألم يعبد الحسن فى زهرها ؟

ومن وصفه هوى الانتقام فى بليتيس إذ تقول :

أذله هــذا الفتى   . . . .
واغرس فى قلبه زهرة   من الشر راوية نامية
. . . .
إذا استافها الرجل العبقرى   تحول كالحيوان الوخم
تضج البلاهة من حوله   وينظر كالصنم المبتسم

وإذا ما تضاعف نشاط الذهن والمخيلة ، وزادت يقظة الشعور حتى تناهى نشاطهما ويقظته معاً ، فذلك فوران النفس الشحوذ فى الشاعر الموهوب فوراناً يضطره إلى الإفضاء بما يخامرها ، فيتبعث منها الشعر ؛ وذلك هو شيطان الشاعر فى حسة تجليه ؛ وتلك هى الملكة أعظم ما تكون حرية وانطلاقاً ، وأرفع ما تكون سمواً ، وهى بعينها هزة الإلهام الذى ابتدع هذا الصنيع الباهر

ولقد كملت صفاته الشعرية بما عليه من مسحة عقلية ، لا من العقل الفلسفى الهادئ ، بل من العقل الذى جعل للملحمة مشابهة للحقيقة ، إذ خلت من التناقض فى مواقف أبطالها وفى نفوسهم الظاهرة أحوالها من كلامهم على ما شاءت لهم الفطرة والأقدار واستقام فى خيال الشاعر .

***

ومما زاد للملحمة مشابهة للحقيقة إتقان المحاورة بين أبطالها ، إتقاناً جعلها حية ، طبيعية ، شائقة ، فقد أبدى كل منهم رأياً وعرض حججه ، وفى كل من آرائهم شيء مقبول ، أو على ظاهر من الحق ؛ وكان كلامهم سؤالاً يستدعى جواباً ، أو قولاً يجلب اعتراضاً أو تحذيراً ؛ واستيقافاً يسلم صاحبه جدلاً ، أو يبدى تحفظاً ؛ وبياناً يحوز موافقة ، أو يثير دهشة أو إعجاباً

ثم إن هذا الموضوع خرج فى وحدة سالمة من الاضطراب ومن النظام الرتيب ، إذ له مدخل شعرى لطيف الإشارة إلى الغرض منه ، ووسط يشرحه ، وخاتمة يحسن السكوت عليها ؛ وأجزاؤه مرتبة ترتيباً يوثق العلاقة بينها ، ويشد فيه بعضها بعضاً ، ويجمع بينها ارتباط قوى .

ومن صفات هذه الملحمة وضوح موضوعها لأن وقائعه مختارة بذوق سليم ، مسلسلة سلسلة طبيعية معقولة ، خالصة من كل تفصيل لا طائل وراءه ، ومن كل حادث أو موقف ليس يوافق شرح هذا الموضوع أو ليس بسبيله .

وزد أن الملحمة كلها شائقة جد شائقة بما بين أجزائها من تناسب موفق ، وبما فيها من إشارة — عن بصيرة وفى قصد — إلى الأسباب فى أقوال أبطالها وفى حركاتهم ، ومن تشويق إلى الوقوف على الحكم فى آرائهم الشائقة فى ذاتها ، وإن كانت لا تحول حيلولة دون تمكين البصير من حزره قبل الأوان ؛ وأيضاً أن عنصر الوجدانيات داخل فى المواضع اللائمة من الكلام المزدان — على اعتدال — بخواطر نيرة ، وعبارات أنيقة وإشارات بارعة . ومن إشارات :